

(الكارثة) نهاية عصر برونز في الشرق الأدنى القديم 1200 ق.م

بقلم
الأستاذ الدكتور
صلاح رشيد الصالحي
تخصص: تاريخ قديم
بغداد 2020



شكل 1: رسوم مصرية من معبد هابو تمثل محاربين من (شعوب البحر) من اليمين إلى اليسار: أربعة محاربين من القبائل الليبية (Libyans)، ثم ثلاثة محاربين من الكنعانيين (Canaan) أو الاسيويين، يليهم اثنان من البلست (Philistine)، ثم يليهم محاربين من الشردانا (Sherden)

هناك ظاهرة مهمة في تاريخ الشرق الأدنى القديم من الناحية التاريخية، فقد انتهى عصر البرونز الأخير (1200-1300) ق.م وبدأ عصر الحديد (1200-539) ق.م، وبذلك اختفى النظام القديم الذي تميز بهيمنة الممالك الكبرى مثل المملكة الحثية (في بلاد الأناضول)، والامبراطورية المصرية، ومملكة مايسينيا (في اليونان وسواحل شرق بحر إيجه)، فمع زوال المملكة الحثية، فقدت بلاد الأناضول الاتصال الدبلوماسي مع الممالك القديمة في مصر وبلاد الرافدين، وكنظرة عامة على منطقة الشرق الأدنى قبل (1200) ق.م تظهر منطقتين جغرافيتين مختلفتين: منطقة شرق البحر المتوسط، ومنطقة بلاد الرافدين، وشملت الأولى منطقة سوريا و فلسطين، وبلاد الأناضول، وجزر شرق المتوسط والأراضي المتاخمة لبحر إيجه، وهذه الأراضي والممالك حكمت أو تأثرت بشكل مباشر أو غير مباشر من قبل القوتين العظميين في ذلك الوقت المملكة المصرية (المملكة الحديثة)، والمملكة الحثية (في تركيا)، وأما المنطقة الجغرافية الثانية فتشمل المثلث في المناطق الداخلية وهي ثلاث ممالك: المملكة البابلية وتحكمها السلالة الكاشية في الجنوب، والمملكة الاشورية في الشمال، ومملكة عيلام في الشرق، وعند انتهاء فترة عصر البرونز حوالي (1200) ق.م، نرى شرق البحر المتوسط تغير بشكل كبير فقد اختفت الممالك الكبيرة والدويلات الصغيرة، مثل المملكة الحثية، والممالك المايسينية، والمستوطنات في جزيرة قبرص وعدة مدن في منطقة سوريا وفلسطين مثل أوغاريت، وإيمار، وغالبية هذه الأماكن تعرضت للتدمير أو هجرها السكان واصبحت المدن والقصور خاوية على عروشها، بينما بقيت المملكة

المصرية الحديثة على قيد الحياة، ولكنها فقدت سيطرتها على ممتلكاتها في سوريا وفلسطين والنوبة، وبدأت مصر تدريجياً تصبح دولة ضعيفة، وفقدت الاتصال الدبلوماسي مع بلاد الرافدين أو مع مدن شرق البحر المتوسط.

أن غياب القوة خارج بلاد الرافدين، سمحت للدويلات الصغيرة ان تمارس التبادلات التجارية الدولية فيما بينها بعد ان كانت سابقا تحت احتكار الممالك الكبرى (مصر، وحاتتي، وبابل، وآشور)، وبذلك فان الاستقرار الثقافي الذي ميز أواخر عصر البرونز والذي رافقه التعايش السلمي والعلاقات الدبلوماسية وكتابة الارشيفات والمعاهدات في عصر العمارنة اختفت هي الأخرى تماما بسبب كارثة حلت على العالم القديم، ويبدو ان سبب الكارثة غير معروف بالتحديد، فهناك عدة تفسيرات تختلف حسب وجهة نظر العلماء اعتمادا على المعطيات التاريخية، فعالم الآثار الفرنسي (Schaeffer) الذي قام بالتنقيب عام (1955) في إحدى المواقع المدمرة في مدينة أوغاريت (رأس شمرا حاليا) خرج بنتيجة ان سبب الكارثة كانت طبيعية نتيجة زلزال كبير دمر العديد من المواقع في شرق البحر المتوسط مثل طروادة (الطبقة VII)، ومايسينيا، ومدينة الااخ عاصمة مملكة موكيش (تل العطشانة حاليا)، وحاتوشا (عاصمة المملكة الحثية)، وبيلوس (في لبنان) ومدن أخرى.

وفي دراسة أخرى للباحث (Drews) اعتبر الكارثة ليست انهيار الأبنية بفعل الزلازل بل التدمير بالنار لوجود رماد كثير في الطبقة الاثرية لمدن أواخر عصر البرونز، ومن وجهة نظر الباحث (Tainter) ان الكارثة اصابته الحضارات الضعيفة التي لم تكن قادرة على الصمود فانهارت ولعل سبب الحجم الكبير للكارثة يتمثل بموجات الهجرة التي رافقها العنف والقتل والحرق، واعتقد بعض العلماء أن سبب نهاية ممالك أواخر عصر البرونز في شرق البحر المتوسط هو ظهور هجرات قام بها ما يسمى (شعوب البحر) (وهي تسمية وردت في المصادر المصرية القديمة).



شكل 2: اسم شعوب البحر بالخط الهيروغليفى المصري، فقد ظهر اسمهم أول مرة في عهد رمسيس الثاني (1223-1290) ق.م من الأسرة التاسعة عشرة على لوحة برج العرب التي عثر عليها في العلمين

وينسب لهؤلاء المهاجرين تدمير مناطق شرق بحر المتوسط، هذا الانهيار الكارثي حدث في نهاية عصر البرونزي فقد تعرضت المدن للتدمير في بلاد الشام، ومنها مدينة إيمار (Emar)، وتقع في شمال سوريا، التي تعرضت للسلب والنهب والحرق، وقد عثر على وثيقة قانونية حول قطعة أرض عليها منزل خاص تؤرخ الوثيقة إلى السنة الثانية من حكم ميلي-شيباك أو ميلي-شيخو (Melīšihu) (1172-1186) ق.م ملك بابل الكاشي وتحتوي على عبارته قصيرة تشير إلى الهجرات البشرية، وحدد تاريخ الوثيقة بفترة قصيرة قبيل التدمير.



شكل 3: خريطة مسيرة شعوب البحر خلال هجراتهم التي اتسمت بالعنف والقتل والتدمير والحرق لمدن أواخر عصر البرونز

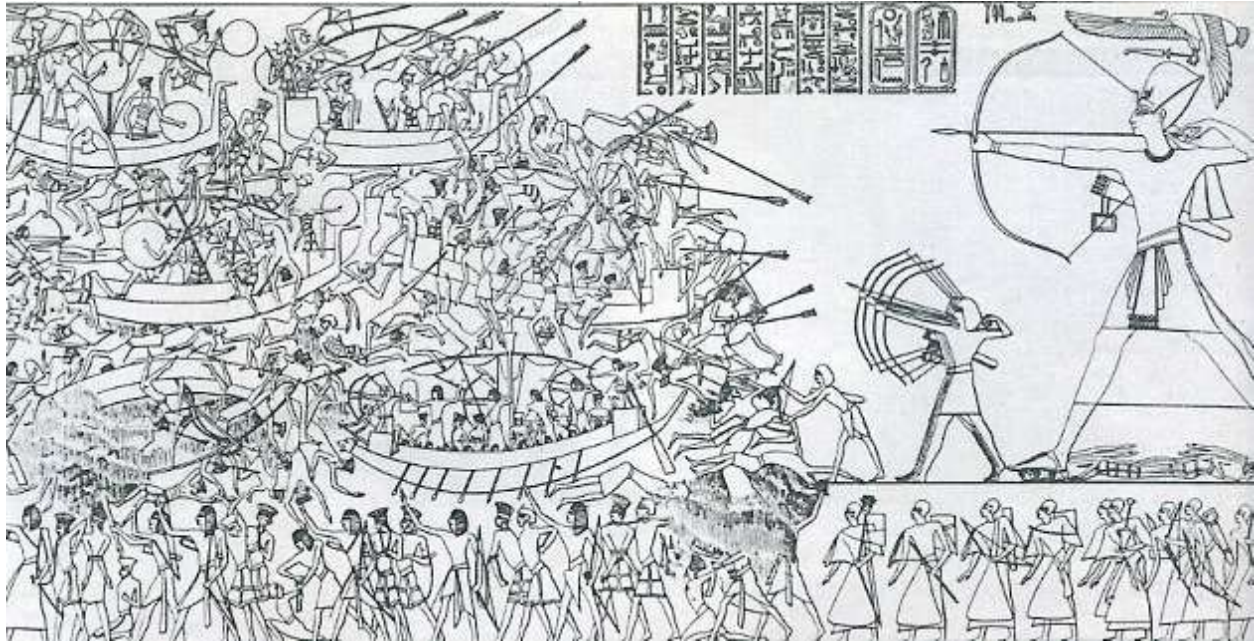
كذلك شمل التدمير مملكة اوغاريت التي طلب ملكها عمورابي (Ammurapi) مساعدة ملك الاشيا (قبرص) ضد سفن شعوب البحر كما طلب مساعدة ملك كركميش (Carchemish) الذي لا يملك غير التشجيع مع بعض النصائح فهو الآخر في وضع لا يحسد عليه.

لم تتجوا المملكة الحثية وعاصمتها حاتوشا من التدمير فهي الأخرى تعرضت السلب والتدمير في أواخر حكم سوبيلوليوما الثاني (Suppiluliam) ويقابل زمنا منتصف حكم الملك البابلي ميل-شيباك ملك بابل الكاشي، وقد ورد في نص للملك الحثي يشير إلى ثلاثة اشتباكات بحرية وأخرى برية ضد أعداء وصفهم من الاشيا (بمعنى جزيرة قبرص): (أبي (...))، أنا حشدت قواتي، وأنا سوبيلوليوما، الملك العظيم حالاً عبرت ووصلت(?) البحر، واجهتني في المعركة سفن الاشيا في البحر ثلاث مرات، وأنا قاتلتهم، وأنا استوليت على سفنهم وأشعلت النار فيها وهي في البحر، لكن أنا عندما وصلت إلى الأرض اليابسة(?) جاء الأعداء من الاشيا بحشد كبير ودخلوا الحرب ضدي) بعض الباحثين يرى انها معارك بحرية ضد شعوب البحر وما عدا هذا النص فلا نملك وثيقة حثية يمكن ان نعتبره دليل على سقوط المملكة الحثية نتيجة لغز شعوب البحر.

ومن الطبيعي أن نعتمد حول احداث أواخر عصر البرونز على المصادر المصرية، فلدينا نقش مصري يعود إلى الفرعون رعمسيس الثالث فيه اشارات عن هزيمة حاتتي وكل بلدان شرق البحر المتوسط على يد (شعوب البحر)، وحول الوضع السياسي في الأناضول بعد وصول (شعوب البحر) ما زال غامضاً في أواخر عصر

البرونز وعصر الحديد لذلك أطلق عليه (العصر المظلم) الذي دام حوالي (200) عام أو يعرف باسم (سنوات الازمة).

ومع زيادة هجرة شعوب البحر اضطر الفرعون مرنبتاح عام (1209) ق.م على قتال تلك الموجات البشرية عندما وصلت طلائعهم القتالية إلى دلتا مصر قادمين من سواحل ليبيا بعد اتفاق القبائل الليبية مع المهاجرين ، ثم قاتلهم الفرعون رعمسيس الثالث (1186-1155) ق.م وطبقا لوثائقه فقد واجه عدة هجمات في شمال مملكته من البر والبحر وتؤرخ إلى السنة الخامسة من حكمه، وذكر أسماء القبائل التي هاجمت مصر منها الكيكش، والشاي، والهس، والبكن وهي قبائل صغيرة العدد نسبيا تحالفت مع قبيلة الليبو التي تستوطن شرق ليبيا وكان هدفهم مهاجمة ممفيس وقد وصلوا فعلاً إلى فرع النيل الكانوبي، ولكن رعمسيس الثالث باغتهم بالهجوم وحقق النصر أوقف زحفهم على مصر، وخلد انتصاراته في نقوشه في معبد مدينة هابو، وبذلك استطاعت مصر نسبيا الاستمرار في نهاية عصر البرونز وتبقى كقوة في المنطقة بعد أن حققت النصر على شعوب البحر وحققت الأمن واغدق رعمسيس الثالث بالهدايا للآلهة المصرية في معابدها لوقوفها إلى جانبه في هذه المحنة.



شكل 4: مشهد بالنحت البارز على الجدار الشمالي لمعبد مدينة هابو (Habu) يوضح الحملة المصرية التي قادها رعمسيس الثالث ضد الغزو البحري لشعوب البحر

لقد تم تحديد بلدان (شعوب البحر) في جزيرة صقلية، وجزيرة سردينيا، ومناطق غرب بلاد الأناضول، والاحتمال الكبير في سبب الهجرة السكانية تعود إلى موجة الجفاف التي ضربت مناطقهم من (1300) ق.م وحتى (1200) ق.م، ومن الطبيعي فان الجفاف يجبر الناس على الهجرة إلى مناطق أخرى مثل مصر حيث وادي النيل بحثاً عن مصدر رئيسي يوفر لهم الحبوب والطعام، أو قد يعمل المهاجرين كمرتزقة لدى المملكة المصرية، أو يتحالف المهاجرين مع أشخاص آخرين يعانون من نفس المشكلة كما جرى في سواحل ليبيا عندما تحالف المهاجرين من شعوب البحر مع قبيلة الليبو (Libou) الليبية وهاجموا مصر في عهد الفرعون مرنبتاح (1213-1204) ق.م ، ومن المحتمل رفض المصريون هجرة شعوب البحر لان هؤلاء المهاجرين استخدموا استراتيجية جديدة في قتال المشاة، واستخدموا السفن البحرية في النقل والحرب، ويعتقد معرفتهم تعدين الحديد منحهم القوة اكثر وجعلت أسلحتهم أكثر صلابة من السيوف والرماح البرونزية، على اية حال

فان النقاش مستمر بين العلماء والمتخصصين بأن السبب الأكثر قبولاً لنهاية ممالك أواخر عصر البرونز هو الجفاف الذي استمر لفترة طويلة قرابة قرن من الزمان.



شكل 5: مشهد نقش على جدار معبد هابو يمثل أسري من شعوب البحر مقيدين الأيدي والرقبة وهم أسري حملة رعمسيس الثالث ضد الغزو البحري لشعوب البحر

بقاء الدولتين الآشورية والبابلية بعيداً عن الكارثة

تمكن ملوك آشور في هذه الفترة من النجاة من الانهيار العام لنهاية عصر البرونز، على الرغم من الدمار الشامل والانهيار في أماكن أخرى في الشرق الأدنى القديم، فنرى الحملات العسكرية للملك توكلتي نورتا الأول (1207-1243) ق.م كانت مهمة من أجل إبراز القدرات العسكرية للدولة الآشورية، كما تدل على عدم تأثر الآشوريين بالتدمير الذي حدث في شرق المتوسط، على الرغم من ظهور موجات من المهاجرين الساميين يتصفون بالعداية وهم الآراميين البدو، وكانت هجرة الآراميين على شكل موجات شملت المناطق المحيطة في آشور، وكان لابد من سلسلة من الحملات العسكرية ضدهم، كما فعل الملك الآشوري تجلاتبليزر الأول (1076-1114) ق.م الذي قاد حملات عسكرية ضد الآراميين وقد ذكرها في حولياته، واعتبرت عملية توثيق تلك الحملات العسكرية لها هدف أيديولوجي، فهي تخدم مصالح مجموعة اجتماعية آشورية باستخدام القوة والإكراه، وتسعى لمساندة السلطة من أجل إدامة موقفها المهيمن إلى جانب الملك، لأن حالة الحرب تعزز التضامن الاجتماعي وتركز الهوية الآشورية هذه الأيديولوجية نقلت إلى الأجيال اللاحقة عبر حوليات الملوك الآشوريين، فأصبحت الحملات العسكرية تحصل على مباركة الكهنة، ومباركة الآلهة أيضاً، واعتبر الملك هو المدافع عن شعبه، ويعاقب أولئك الذين يهددون أمن المملكة، وكانت الأغاني تنشد من قبل المغنيين في داخل القصور الآشورية وتتناول قتال الملوك مثل الأسود ضد أعداء آشور، كما يضمن الملك الآشوري السلام والأمان ويواجه التهديد التي تهدف إلى تدمير الآشوريين ومدنهم.

وفي الواقع، تأثر المجتمع الآشوري في هذه الفترة بشكل كبير بفكرة (عسكرة الدولة)، وإن الأرض ملك للدولة وتسلم كامتياز لأفراد معينين مقابل خدماتهم للدولة الآشورية، وخاصة أداء الخدمة العسكرية أو المشاركة في مشاريع البناء، وهناك خاصية أخرى هي التراث فقد ورث الآشوريون عن الملوك الأكديين في جنوب بلاد الرافدين فكرة بأن الملوك قادة عسكريين أبطال استندت سلطتهم الملكية على الآلهة وعليهم غزو كل الولايات والمدن الجنوبية وحتى الأعداء في خارج بلاد الرافدين، وأصبحت الملكية وراثية، وكانت مناصب الدولة للبيع لمن يدفع أكثر، ومع ذلك، كانت آشور رائدة في تبني تكتيكات عسكرية جديدة لكونها مملكة حدودية قريبة من جبال طوروس و زاكروس، فكان لديها جيش نظامي وقوات احتياطية تجند وقت الحرب كما في النص الآتي :

(عندما نزل الكوتيون (Gutians)، من بلاد گوتي (Guti) في جبال زاكروس إلى السهل في غارة على مناطق آشور، ترك الملك شلمانصر الأول مشاة خلفه، وقاد ثلث مركباته لتدمير الكوتيين (...))، وعندما قام توكليتي-ننورتا الأول بمهاجمة گوتي ذبحهم جميعاً...) علينا أن نفترض أن ذلك تم بواسطة مشاة قادرين على القتال بالسيوف والرماح، ولم تستخدم آلات الحصار والفرسان، على ما يبدو أن ملوك آشور مثل شلمانصر الأول وتوكليتي ننورتا الأول حاربوا في كثير من الأحيان الأعداء خارج حدودهم الشمالية والشرقية، وهي مناطق جبلية وعرة تتطلب استخدام مشاة آشورية بكثرة، وكانت الخبرة الطويلة للأشوريين في الحروب باستخدام المشاة جعلتهم لا يعتمدون حصراً على المركبات أو الفرسان التي كانت من مميزات نهاية العصر البرونز، كما أدخلت آشور تجنيد المرتزقة أو المحاربين الأجانب المحترفين وتحويلهم إلى جيش وطني نظامي، بينما يتم استدعاء الميليشيات من البالغين من سكان المدن التي خضعت لسيادتهم، ومن أكبر المخاطر التي تواجه الدولة الآشورية دائماً عدم السماح لهذه الميليشيات أو الجيش النظامي البقاء خاملاً بدون حرب، ولهذا السبب يتم خوض الحرب ونهب ثروات الشعوب المقهورة، ومن ثم فإن (عسكرة الدولة) كان يدعمها النخبة الاجتماعية الآشورية (النبلاء، والكهنة، وحكام الأقاليم، وأصحاب الإقطاعيات..) التي احتلت أعلى المناصب العسكرية والإدارية، وشكلت النخبة قوات عسكرية لحماية نفسها وامتيازاتها، باستخدام استراتيجيات مختلفة منها تسوية النزاعات حول الأراضي، وحماية طرق التجارة، أو نهب البضائع من المجتمعات الأخرى.

كانت هناك فترات من عدم الاستقرار، أدت إلى دخول سكان الريف إلى مدن وهذه بحد ذاتها تساعد على الدفاع عن المدن من الغزو الخارجي، وفي فترات الأزمات تصبح النزعة العسكرية قوة مستقلة يمكن أن تمارس السلطة مباشرة من خلال استخدام القوة المفرطة كما هو واضح في الألواح الجدارية الصخرية التي تزين قصور آشور، ولهذا عندما ثارت موجات الغزاة الآراميين البدو الرحل الفوضى في كل من بابل وآشور، فإن الآراميين سببوا حالة من الاضطراب والارتباك في كلا الدولتين، فقد عانت بابل من هجومهم، بينما في آشور طورت العلاقة مع الشعب الآرامي، فمن وجهة نظر الباحث (Postgate) (كان قلب بلاد آشور بعيداً عن تهديد الآرامي البدوي، وأي علاقات مع البدو سواء كانوا سلميين أو معاديين، سيكونون في الغالب بعيداً عن حدود آشور أي في الصحراء)، وبالتالي لم تكن هناك قوى كبرى تتنافس بفرض سيطرتها على شمال بلاد الرافدين فبقيت آشور بعيدة عن أي انهيار.

وهناك ميزة أخرى فالدولة الآشورية تفوقت على الأنظمة السياسية الصغيرة في شمال بلاد الرافدين، حيث تمكنت من حشد المزيد من الموارد للتغلب على هذه الدويلات الصغيرة إذا لم يتم ردعها على الفور، ومن ثم فإن الآشوريين يعتقدون من الضروري فرض سيادتهم على شمال بلاد الرافدين، وإدماج المدن الرئيسية تحت سيادتها (أربيل وآشور ونينوى، والمدن الواقعة على طول نهر دجلة ورافد ديالى...)، وإدارة الأراضي الزراعية الهامة في الشمال والشرق، وإدارة الموارد لتمويل الأشغال العامة الرئيسية، كما وضعت فكرة جديدة للهوية الآشورية، فالآشوريون لديهم إحساس بالعرقية ومن حقهم أن يفتخروا فلم تصلهم الهجرات الكثيرة التي استقرت في الجنوب، حتى إننا نفتقر إلى كلمة (أجنبي) في اللغة الآشورية بمعنى ليس لدينا إشارة للأجانب حيث استخدم تعبير (lú kúr) بالأكدى اخوم (ahum) أو اوبارو (ubaru) أو ناكروم (nakrum)، بينما في بداية عهد الدولة الآشورية القديمة (بداية الألف الثانية ق.م) كان هناك مصطلح (الأجانب) وتعني أختيوم (ahiatum)، وكلمة مواطن تعادل آشور (Aššur) ورد هذا في نص ضمن أرشيف المستعمرة الآشورية في بلاد الاناضول.

على أية حال لم تطال الهجمات الكارثية بلاد الرافدين فلم تصل جيوشهم التي كانت تستخدم السفن وأحياناً العربات في تنقلهم وقتالهم، وبقيت آشور قوة ثانية في منطقة الشرق الأدنى القديم ولكن بعد اغتيال توكليتي-ننورتا الأول عم الضعف السياسي والعسكري وتقلصت حدودها ودام هذا زهاء قرن واحد (1115-1208)

ق.م، أما بابل بقيت بعيدة عن ساحة الولايات في الغرب ولكنها حتما ستشهد هي الأخرى تغييرات سياسية فيما بعد.

خلاصة القول، في حين عانت المناطق الساحلية في شرق البحر المتوسط من الفوضى والكارثة والتدمير، فإن شمال وجنوب وشرق بلاد الرافدين لم يعاني من كارثة التدمير فقد بقيت المملكة الآشورية بعيدة ونجت من الانهيار بل أصبحت آشور قادرة على تعزيز وتطوير نفسها من خلال تأسيس قواعد القوة الجديدة في الشرق الأدنى القديم بفضل الموروث الثقافي الكبير في بلاد الرافدين المتمثل بالدولة الأكديّة.

المصادر

- 1- صلاح رشيد الصالحي: المملكة الحثيّة، دراسة في تاريخ بلاد الاناضول، بغداد، 2007، ص 469 - 501
- 2- صلاح رشيد الصالحي: العلاقات الآشورية-الحثيّة، معركة نهاريّا ونهاية المملكة الحثيّة، مجلة المورد، العدد 43، بغداد، 2017، ص 113-138
- 3- صلاح رشيد الصالحي: بلاد الرافدين دراسة في تاريخ وحضارة العراق القديم، الجزء الأول، بغداد، 2017، ص 435-436

Robert Drews: "The End of the Bronze Age". Princeton. 1993. Pp. 53-54